موضوعا لا بد من طرقه : الفدائيين الفلسطينيين وحياتهم وافكارهم . وابطال الرواية ثلاثة فلسطينيين ينتمون الى حركة المقاومة الفلسطينية كسبيل اوحد ومشروع لتحرير الاراضي العربية المغتصبة . فمريم تقرر الانضمام الى حركة المقاومة عقب الازمة حيث تبرز الشخصية الفلسطينية بوجه جديد بعد أن طمرتها سنوات المساومات والبلادة السياسية . اما سلمان ، شقيقها ، فيقرر ايضا ما قررته شقيقته فيغادر المانيا حيث كان يدرس . اما الشخصية الثالثة الرئيسية في الرواية فهي سهير .

و« عصافير الفجر » رواية جادة لا مجال فيها للكوميديا والاستخفاف . فقد قرر الابطال ان ينتقلوا من عالمهم الشخصي وهمومهم الذاتية ليكرسوا انفسهم لقضية جماعية مشرفة للنضال فيها مقام السبق ودرجة الاولوية . وغالبا ما تشير المؤلفة الى بيروت على انها « مدينة ملونة » لتشير ، بشكل مباشر ، الى عدم اكتراث سكانها للقضايا السياسية واستغراقهم في حضارة التبرج وتفضيلهم لقشور الحضارة الاوربية ونفورهم من القيم الروحية الاصيلة .

ومن الطبيعي ان يبحث العربي ، وقد أصيب بعصاب الفشل والتردد بعد النكسة ، عن تبرير جديد للوجود وقد وجده ابطال عسيران في ممارسة الفعل اليومي وتكريس انفسهم ونذرها نهائيا وبقداسة من اجل التحرير . فحينما يكتشف العربي بأنه كان نائما على أوهام العظمة التاريخية لا بد وان يلتفت الى الحاضر ليفتح عينيه على مواطن الوهن في كيانه ويعمل على تجديد خلاياه . وهذا ما اختاره ابطال روايتها . وما من اختيار أجمل وأصدق من اختيارهم : فما أخذ بالقوة ينبغي ان يسترد بالقوة . والمقاومة الفلسطينية اكليل غار على جبين العرب ، لقد رفعت رأسهم عاليا بين الامم ، وجعلتهم يدركون بأن العربي لم يعد ذلك الصحراوي او الريفي الساذج واجبرهم على ان يكونوا تصورا جديدا تماما عنه . انه ليس كما اوحت لهم أجواء « ألف ليلة وليلة » الخدرة . انه ساعة الحسم وترسانة من ترسانات البشرية التقدمية المسلحة بحب الحياة والقادرة على اثبات الوجود بجدارة ويقظة .

بعد هذا الاستطراد الذي قصدنا منه ان يكون تعبيرا عن لوعة و« ترنيما على قيثارة الامل » ننتقل الى غسان كنفاني أبرز الكتاب الفلسطينيين وأكبرهم شأنا . لقد عانى كنفاني ، وهو لما يزل صبيا يافعا ، من التشرد في اواخر الاربعينات بسبب الاحتلال الصهيوني وقاسى الامرين من شظف العيش واللااستقرار . ونشأته وتنقله بين البلدان بحثا عن الخبز والكرامة والحرية نموذج ينطبق على العديد من الفلسطينيين وان كان يمتاز عن بعضهم بالوعي السياسي المقرون بالفعل والموقف المبدأي وبمثابرته واصراره على ان يلتحم بقضيته بدون زوغان .

لقد كتب غسان كنفاني الذي شهد المأساة وخبر بعض فصولها عدة مجموعات من القصص القصيرة وعدة روايات منها « ما تبقى لكم » و« ام سعد » و« عائد الى حيفا »(٩) الى جانب ممارسته المستمرة للصحافة وعلاقته المباشرة بحركة المقاومة . وهو ، كما اشرنا ، من اوائل الذين كتبوا عن القضية الفلسطينية أعمالا ادبية ناضجة في محتواها وطريقة تناولها .

ومن مميزات تفكير غسان كنفاني ، الشمولية او الكلية التي أشرنا اليها في بداية مقالنا هذا . ففي ندوة عقدت في دار الفن والادب في الخامس عشر من مايو ١٩٧٢ عن الرواية والواقع(١٠) وعما اذا كان الادب تعبيرا عن الواقع ام هروبا منه الى الماضي او مجابهة الحاضر اشار كنفاني الى ان الروائي هو كل هذه المعالم مجتمعة . وأكد على ضرورة التسلح بالوعي وان الفن سلاح هدفه التغيير ، وان الفن نوعان : اما ان يكون خدمة للقيم السائدة او ثورة عليها . ومن الادلة على فكره الشمولي اعتباره الانسان كونا